المجاعة والوباء وأثرهما على المجتمع المصري
في الفترة (٥٩٦- ٥٩٩هـ/ ١١٩٩-١٢٠٢م)

أ.د/ سيد محمود محمد عبد العال

قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الفيوم

ملخص

تتناول هذه الدراسة المجاعة والوباء اللذان أصابا مصر لمدة ثلاث سنوات، حيث شهدت مصر غلاء أعقبه مجاعة ووباء بسبب توقف ماء النيل عن الزيادة، وكانت تلك المجاعة شديدة الوطء على المجتمع المصري في جميع نواحيه الاقتصادية والاجتماعية. فقد عدمت الزراعة وأهملت الجسور ومات الفلاحين وخلت القرى، ووقع الفناء في الثروة الحيوانية، وتعطلت الصناعات بسبب موت الصناع، وارتفعت أسعار السلع الأساسية كالحبوب، فعدم القمح والشعير وحاول بعض التجار استغلال الغلاء من خلال تخزين الغلال والامتناع عن بيعها، وكثر موت الناس في المدن والقرى وخاصة موت الأطفال وأكل لحوم البشر واستعبدت الحرائر وتحولت المدن إلى خرائب.

مقدمة:

تعد المجاعات والأوبئة من أخطر ما تتعرض له المجتمعات البشرية، لما لهما من آثار سلبية كبيرة ونتائج فتاكة تؤدي إلى هلاك وتدمير القوة البشرية وتشل نموها السكاني والاقتصادي والاجتماعي والعمراني، لاسيما بعد أن يبدأ السكان بالفرار من هذا الوباء خشية من الإصابة به. فتبقى الأراضي الزراعية بورًا لعدم وجود من يزرعها، ويتعطل الجانب الصناعي المتمثل في أصحاب الصناعات والحرف الفارين أو المتوفين بسبب الإصابة. فضلًا عن توقف النشاط التجاري في تلك البلاد لعدم وفود التجار إليها، مما يكون أثره مباشرًا وبشكل سلبي على الحياة السياسية والعلمية في كثير من الأحيان، بسبب وفاة الكثير من الأمراء والموظفين، وتوقف الرحلات العلمية ووفاة العلماء في مختلف الاختصاصات، نتيجة لإصابتهم بهذا الوباء من ناحية أخرى.

ومن هذا المنطلق تأتي أهمية دراسة المجاعات والغلاء والأوبئة في مصر في عهد العادل الأيوبي خاصة أعوام ٥٩٦-٥٩٩هـ لتعطي مثالًا واضحًا على اهتمام المصادر

الإسلامية بتلك الظواهر العارضة في حياة أهل مصر وتداعياتها الخطرة على السكان، حيث تعرضت مصر خلال فترة الدراسة لعدد من الكوارث الطبيعية والبشرية خلفت وراءها عددًا من المجاعات والأوبئة التي كان لها أثر سلبي كبير على اقتصاد مصر وعلى وضعها الديموغرافي.

تهدف الدراسة إلى البحث في أسباب المجاعة من حيث إيضاح جذورها والعوامل التي ساعدت على نشأتها والمؤثرات المختلفة التي ساهمت في ظهورها تناول الجفاف ثم الغلاء والوباء وأثرها على المجتمع المصري، ودراسة المحددات الاجتماعية لتلك المجاعات والأوبئة، وكيف تعامل معها المجتمع المصري، والسلطات الحاكمة وقتئذ.

الحدود المكانية والزمنية: تقتصر الدراسة من الناحية المكانية على البلاد المصرية، وأما من الناحية الزمنية فهي تتناول الغلاء والمجاعة والوباء من شهر شوال سنة ٥٩٦هـ إلى شهر ذو القعدة سنة ٥٩٩هـ وهي تمثل بداية سلطنة السلطان العادل أبوبكر الأيوبي.

على الرغم من شدة تأثير تلك المجاعة والوباء على المجتمع المصري فلم تلق من الاهتمام من قبل الباحثين والدارسين مثلما حظيت به مثيلاتها التي حدثت في العصر الفاطمي[١] أو العصر المملوكي[٢] فقد كانت أشد في تأثيرها من الشدة العظمى[٣]. فهي بالتأكيد كارثة كبيرة، ومجاعة رهيبة انتشر على أعقابها الوباء، ومات أعداد لا تحصى من

---

(١) الصاوي، أحمد: مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، دار التضامن، القاهرة، ١٩٨٨.

(٢) توجد عدة دراسات عن الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية في العصر المملوكي سواء كانت رسائل علمية أو بحوث ومقالات سواء باللغة العربية أو اللغات الأوروبية الحديثة مثل: حامد زيان: الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٦؛ حياة ناصر الحجي: " المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك في الفترة ما بين عامين ٦٩٤-٦٩٥هـ/١٢٩٤-١٢٩٥م"، ***حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية جامعة قطر***، العدد٧، ١٩٨٤؛

Ayalon (D., " The plague and its effects upon the Mamluk army ", ***Bulletin of the school of Oriental and African studies***, XV, 1953; Chapoutot (M.), "Une Grande Grise a la Fin du XIII siecle en Egypte", ***Journal of the Economic and Social History of the Orient***, vol. 26, 1983; Dols,"Plague in early Islamic ", ***Journal of American Oriental Society***, vol. 94, 1974 ; Dols, *Black Death in the middle east*, New Jersey, 1977; "The second plague pandemic and its recurrences in the middle east ", ***Journal of the Economic and Social History of the Orient***, vol. 22, 1979.

(٣) ابن ايبك الدوادار: أبو بكر بن عبد الله ، ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص١٤٩؛ سيد، أيمن فؤاد: التطور العمراني لمدينة القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧، ص٣٢-٣٣

الناس[٤]. ووصفت تلك المجاعة بأنها "مفترسة لأسباب الحياة"، و" حوادث رهيبة"، و" قحط هائل"، "ووباء مروع اجتاح مصر"، و" وباء وفناء" [٥]، و" الوباء العظيم المشهور" [٦]، و"الحوادث العظيمة"[٧].

والمجاعة تسبق الوباء وهي مأخوذة من الأصل جاع أي خلت معدته من الطعام، وهي عام الجدب[٨]. في حين الوباء يعقب المجاعة هو أعم وأشمل من الطاعون، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعون[٩]. واستخدمت عدة مرادفات أخرى للدلالة على انتشار الوباء وقوته ونوعه مثل: الفناء والفصل والموت والموتان والداء وحبة الموت. وأما كثرة الموتان[١٠]، الموتان[١٠]، فلها أسباب كثيرة منها المجاعات أو الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل. أما وقوع الوباء فسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائما فيسري الفساد إلى مزاجه. فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة[١١].

أسباب المجاعة والوباء:

---

(٤) آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطي، ترجمة عبد الهادي عبله، مراجعة أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٥) المقريزي، أحمد بن علي، ت. ٨٤٥هـ/١٤٤٢م: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠، ص٢٩.

(٦) ابن الجزري، محمد بن إبراهيم ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م: المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، اختيار الذهبي ت ٧٤٨هـ، دراسة وتحقيق خضر عباس محمد خليفة المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٨، ص٧٤.

(٧) ابن إياس، أبي البركات محمد بن أحمد الحنفي، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ج١، ق١، ص٢٥٤.

(٨) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة (ج و ع)، ج١، ص١٥٣.

(٩) الجعيدي، شلبي إبراهيم:" الوقاية والعلاج من الأوبئة في مصر في العصور الوسطي دراسة تاريخية"، ***الثقافية الشعبية***، المركز الحضاري لعلوم الإنسان والتراث الشعبي بالتعاون مع كلية الآداب جامعة المنصورة، العدد الثالث ابريل ٢٠٠٢، ص ١١٢٥.

(١٠) الموت والموتان ضد الحياة، والموتان هو الموت الكثير الوقوع. ابن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص٩٠. مادة " موت".

(١١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م: مقدمة ابن خلون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، ج٢، ص٧٢٣.

كان نهر النيل وما زال محور حياة أهل مصر، سر الحياة وديمومتها في التحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها. فإذا لم يف بفيضانه السنوي تحدث الفتن والاضطرابات، وتظهر أشباح المجاعات ويتكرر نفس الوضع إذا أوفى النيل بفيضان عال فهذا يعني غرق الأراضي الزراعية ودمار القرى(١٢).

ومن المتعارف عليه أن تبدأ زيادة النيل من خامس بؤونة (٢٥ مايو – ٢٣ يونيه) من شهور القبط، وأول دفعة في الثاني من أبيب (٢٤ يونيه –٢٣ يوليه) وتنتهي زيادته في ثامن بابه (٢٨ سبتمبر–٢٧ أكتوبر) ويأخذ في النقصان من العشرين من بابه فتكون مدة زيادة النيل من ابتدائها إلى أن تنقص ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما وهي أبيب ومسرى (٢٤ يوليه – ٢٣ أغسطس) وتوت (٢٩ أغسطس–٢٧ سبتمبر) وعشرون يوما من بابه ومدة مكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوما ثم يأخذ في النقصان... وجرت العادة أن ينادي عليه في اليوم السابع والعشرين من بؤنه بعد ما يؤخذ قاعه وهو ما بقى من الماء القديم في ثالث عشر بؤونه وإذا اكتمل الماء ستة عشر ذراعا ففيه تمام خراج السلطان. وهو ما يسمى " ماء السلطان" حيث تجبي الدولة خراجها، مع عدم ري ربع الأراضي الزراعية عند هذا المنسوب(١٣). وأما ما نقص عن ست عشرة ذراعًا فيروي به ما هو دون الكفاية ولا تحصل منه ميرة سنتهم، ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا. وحينئذ يقال أن البلاد قد شرقت " وتعذرت الأقوات بالديار المصرية"(١٤) وتحول الى مجاعة ووباء... ولما

---

(١٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان الإسلامية، لندن، د.ت، ج١، ص٧٠.

(١٣) البغدادي، عبد اللطيف ت٦٢٩هـ/١٢٣١م: رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر أو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط٢، الهيئة المصة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٢٥؛ ابن مماتي، الأسعد بن مماتي ، ت. ٦٠٦هـ/١٢٠٩م: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٧٦؛ النويري: أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج١، ص٢٦٣–٢٦٤؛ المحلي: مقدمة النيل السعيد، القاهرة، ١٢٨١هـ، ص٩؛ محمد حمدي المناوي: نهر النيل في المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص٦، ١٤٣؛ الصاوي، أحمد: مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢٨.

(١٤) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت. ٦٩٧هـ/١٢٩٨م: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠، ج٣، ص١٢٧؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م: تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، تحقيق حسن محمد الشماع ، جامعة

كانت الأرض في السنة التي يُوفي نيلها بارزة لا يسترها الماء ولا يخفيها الغمر قيل شرقت ولم تتغط ولم ينلها النيل[١٥].

وقد كان الإعلان عن الانخفاض في منسوب مياهه في عام يكون سببًا مباشرًا في حصول حالة من الذعر والهلع بين السكان؛ مما ينتج عنه مضاعفات خطيرة تهدد أمن البلاد وتعرض سلامته للخطر[١٦]. ويرجع سبب حدوث المجاعة المهلكة والوباء المميت إلى القحط الشديد والجفاف غير المحدود مما يؤيد إلى ظهور الغلاء، وصعوبة الحصول على الغذاء. خاصة القمح والخبز، حتى استحال الحصول على الغذاء، فبلغ الأمر بالناس إلى أكل الجيف من شدة الجوع، وتزايد عدد الموتى نتيجة الجوع. فقد توالت سنوات الجفاف.

ويرجع السبب المباشر لهذه المجاعة إلى انخفاض منسوب فيضان نهر النيل عن المقدار المناسب لري الأرض الزراعية. حيث أن مقدار الستة عشر ذراعا كانت تكفي لزراعة بعض الأراضي ودرء خطر المجاعة عن البلاد، أما السبعة عشر ذراعا كانت كافية لزراعة معظم الأراضي وليس كلها، فإذا بلغت ثمانية عشر ذراعا تكفي لزراعة جميع الأراضي الزراعة[١٧]. حيث توقف النيل عن الزيادة منذ سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٨م، بحيث لم تتجاوز الزيادة اثنى عشر ذراعًا و ٢١ أصبع[١٨]. وفي سنة ٥٩٧هـ/١١٩٩م نشف الماء من

البصرة، البصرة ، د.ت.، ج٤، ق١، ص٢٠٧؛ حسن، علي إبراهيم: " أخطر المجاعات بمصر منذ عهد الفراعنة إلي نهاية عصر المماليك"، مجلة الكتاب، السنة الأولي، الجزء الثامن، يونيو١٩٤٦، ص٢٣٨-٢٤٦.

(١٥) الإفادة والاعتبار، ص١٢٦.

(١٦) خضر، مهدي قادر: الأمن في العصر الأيوبي، أردبيل، ٢٠١١م، ص٤٥

(١٧) مجاعات مصر الفاطمية، ص٢٨.

(١٨) الإفادة والاعتبار، ص١٢٦-١٢٧؛ أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر الأيوبي، ت ٧٣٢هـ /١٣٣٢م: المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، ج٣، ص١٢٣؛ ابن الوردي، سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي، ت. ٧٤٩هـ/٣٤٨م: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦،ج٢، ص١١٣؛ إغاثة الأمة، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن سباط، حمزة بن أحمد ت بعد ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م: صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣، ج١، ص٢٣٠؛ ابن الوكيل، يوسف الملواني، ت١١٣١هـ/١٧١٩م: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٥٩.

مجرى النيل أمام المقياس[١٩] في شهر برمودة (٢٦ مارس–٢٤ أبريل)، وصار ما بين المقياس والجيزة بغير ماء، وارتدمت الفتحات التي تصل الماء للمقياس[٢٠]، وتغير طعم الماء وريحه. وكان القاع ذراعين، وأخذ يزيد زيادة ضعيفة إلى السادس عشر من شهر مسرى، فزاد إصبعًا، ثم وقف. ثم زاد زيادة قوية، أكثرها ذراع، حتى بلغ خمسة عشر ذراعًا وست عشرة إصبعًا. ولكن سرعان ما انحط من يومه، فلم ينتفع به[٢١]. " فوقع الغلاء واشتد البلاء"[٢٢].

كان للقحط الشديد والجفاف غير المحدود، سببًا في ظهور الغلاء، وصعوبة الحصول على الغذاء خاصة الخبز، الذي ترتب عليه كثرة الفقراء بالفسطاط والقاهرة، وخلت بلاد الريف المصري من سكانها، ونتيجة لاشتداد الجوع بالناس، زاد عدد الموتى، ثم: " تحرك

---

(١٩) مقياس النيل: عبارة عن فسقية مربعة الشكل ينزل إليها بسلالم وفي وسطها عمود رخام أبيض مثمن، وهذا العمود على اثنين وعشرين ذراعًا، كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسمًا متساوية تعرف بالأصابع، ما عدا الاثنى عشر ذراعًا الأولى فإنها مفصلة على ثمانية وعشرين أصبعًا كل ذراع حيث يدخل الماء إلى فسقية المقياس بواسطة ثلاثة سروب أو طاقات بعضها فوق بعض، طول كل منه نحو السبعين ذراعًا. ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطيه، ص٧٦؛ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ط٢، دار الآفاق العربية، بيروت، د.ت، ق٤، ص١١٤؛ القلقشندي: صبح،ج٣، ص٣٢٧–٣٢٨؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٦٨؛ المقريزي: الخطط،ج١، ص١٥٧؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفي السقا وكامل المهندس، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٧٨–١٧٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص١٥٤؛ نوار، سامي محمد: المنشآت المائية بمصر من الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر المملوكي دراسة أثرية معمارية، دار الوفاء، الإسكندرية، د.ت، ص٣١–٣٦؛ أحمد، أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص٧٧–٨٣؛ العمارة في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٢٩–٣٥؛

Popper (William), The Cairo Nilometre: Studies in Ibn Taghru Birdi›s Chronicles of Egypt, Berkeley, 1951.

(٢٠) كنز الدرر،ج٧، الدر المطلوب، ص١٤٨؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٣٦ . ١٩٧٣، ج١، ق١، ص١٥٧–١٥٨.

(٢١) الافادة، ص١٤١–١٤٢؛ السلوك، ج١، ق١، ص١٥٧–١٥٨.

(٢٢) ابن إياس: نشق الأزهار في عجايب الأقطار، نشر لانجلز، باريس، د.ت، ص٨١.

هواء أعقبه وباء"[٢٣]، ووقع المرض والموتان[٢٤]. حيث أُكلت الكلاب بأسرها، وأُكل الناس الأطفال، فكان الصغير يشويه أبواه ويأكلانه بعد موته، ومن كثرة حدوث هذا الفعل أصبح لا يُنكر[٢٥]، واحتال الناس بعضهم على بعض، فيؤخذ من قدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوي ضعيفا ذبحه وأكله[٢٦].

فضلًا عن ذلك فقد أشار البغدادي لسبب حدوث الوباء وانتشار الأمراض: " فساد الماء المتبقي من ماء النيل وما يحمله من مخلفات، بسبب ما كان يلقيه أهل الفسطاط، ومما يموت في دورهم من السنانير والكلاب، ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم فتتعفن، وتخالط عفونتها الهواء، ومن شأنهم أيضا: أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها، وكانت المراحيض تصب فيه، وربما انقطع جري الماء، فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء"[٢٧]. مما جعل السقايين في القاهرة يجلبون مياه ملوثة بالفعل عند الفسطاط، ولم تكن هناك مياه نقية في الفسطاط والقاهرة[٢٨].

بالإضافة إلى ذلك كان من الطبيعي أن يؤدي عدم وجود القوت من جميع أنواع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبته الأرض[٢٩] وانعدام وجود الغذاء أو سوء نوعه إلى إنهاك بنية جسد الإنسان، والذي بدوره يزيد قدرة الوباء على الانتشار حيث تؤكد دراسات التغذية على وجود علاقة وثيقة ومتبادلة بين سوء التغذية والعدوى الوبائية وأنه في ضوء هذه العلاقة، يمكن تفسير التأثير المدمر للعدوى على المجتمع وبالخصوص الفئات محدودة الدخل، حيث تتخذ العدوى مسارا بالغ الشدة بين السكان ذوي التغذية السيئة، ويفسرون ذلك بأن النقص الغذائي الشديد يسفر عن نقص شامل في المقاومة ضد العدوى فيما اصطلحوا

([٢٣]) السلوك، ج١، ص١٥٧.

([٢٤]) الإفادة، ص١٣٢.

([٢٥]) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦.

([٢٦]) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦.

([٢٧])الخطط، ج٢، ص١٤٧–١٤٨

([٢٨]) ماكنزي، نيل دي: القاهرة الأيوبية دراسة طبوغرافية، ترجمة عثمان مصطفي عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٧٠

([٢٩]) إغاثة الأمة، ص٣٠؛

Chapoutot (M), "Une Grande Grise a la Fin du XIII siecle en Egypte ", ***Journal of the Economic and Social History of the Orient***, vol. 26, 1983, pp.217-245.

على تسميته " نقص المناعة" أو " القصور المناعي" [٣٠]. كما تحذر المصادر الطبية من الجوع قبيل انتشار الوباء لخطورة الأخير في سرعة إصابة سيء التغذية [٣١]. وقد صرح البعض بأن الوباء قد يحدث في الناس من قبل ارتفاع السعر وعدم الطعام[٣٢]. وهو يؤكد أن التغذية الرديئة هي سبب ضعف الأبدان، وبالنتيجة يموت الناس أفواجا وجماعات يضاف إلى أن المصادر طالما تقرن الغلاء بـ الوباء في عبارات مألوفة اجتمع الغلاء والوباء. خاصة أن أغلب الأوبئة التي أصابت مصر سبقها غلاء أو مجاعات حيث أدي عامل الندرة والغلاء دوره في إضعاف البُني البشرية في الوقت الذي كانت فيه مؤسسات الدولة ضعيفة وأقل كفاءة من أن تتصدي للعدوى[٣٣].

كما كان للوضع السياسي في مصر بعد وفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب ٥٨٩هـ/١١٩٢م والصراع والتنافس بين أبنائه وبين أخيه العادل[٣٤] دور في عدم اتخاذ إجراءات قوية في مواجهة تلك الأزمة. فقد استولى العادل الأيوبي على مصر في ٢١ شوال سنة ٥٩٦هـ/ أغسطس ١٢٠٠م بعد عزل المنصور محمد[٣٥] من السلطنة وجعل ابنه الكامل

([٣٠]) مصطفي، مصطفي وجيه: الغذاء في مصر عصر سلاطين المماليك، دراسة في التاريخ الاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٦، ص٢٠٩.

([٣١]) الأنصاري، زكريا: تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤١ تيمور، ميكروفيلم ٢٢٢٧٣ ورقة ٢٧، ٣٠، ٣١.

([٣٢]) تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، ورقة ٢٢؛ ابن حجر: بذل الماعون، ص٢٥٦، ٢٦٧، ٣٦٩.

([٣٣]) النيل، ص١٢٩–١٣٨؛ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٦٧– ١٧٥؛ الغذاء، ص ٢١٠.

([٣٤]) العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادي استطاع استغلال الصراع بين أبناء أخيه صلاح الدين واستولي على أملاكهم فيما عدا إقليم حلب وأصبح سلطانا للدولة الأيوبية في ٢١ من شهر شوال عام ٥٩٦هـ/أغسطس١٢٠٠م، وامتدت من مصر والشام وبلاد الجزيرة شمال العراق وتوفي عام ٦١٥هـ/١٢١٨م. ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٦٨، رقم ٦٤٠؛ ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي الخلافة والسلطنة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٩٧، ج٢، ص ١٠–١٢؛ عبد الباسط بن خليل: نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٥٦– ٥٧.

([٣٥]) المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين بن أيوب، تولي سلطنة الأيوبيين بعد موت أبيه وله من العمر عشر سنين في المحرم سنة ٥٩٥هـ حتى عزله عم أبيه العادل أبو بكر في ٢١ شوال سنة ٥٩٦هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص ٧٥؛ بيبرس الدوادار: مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد

محمد وليًا عهده[٣٦]. ثم أخرج المنصور محمد وإخوته إلى بلاد الشام، خوفًا من الأمراء الصلاحية[٣٧]. وقام بالقبض على أبناء أخيه المؤيد مسعود والمعز إسحاق[٣٨].

كذلك وجد سبب آخر للأزمة هو أن الأفضل علي بن صلاح الدين الذي خرج من مصر بعد دخول عمه العادل إلى الشام يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ/ فبراير١١٩٨م حاملًا معه ثمانين جمل أموال وأثاث من أموال البلاد المصرية مما جعل خزائن الأموال في مصر خاوية[٣٩].

ويفهم مما ذكره أحد الكتُاب المعاصرين أن سبب المجاعة التي حدثت في عهد العادل الأيوبي ما قام به الوزير صفي الدين بن شكر[٤٠] في سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م من قطع الصدقات والرواتب التي كانت تنفقها الدولة فقد: " أشار هذا الوزير بقطع ذلك جميعه... فمنع الله النيل في تلك السنة أن يصعد على أرض مصر فشرقت جميعها من برج أسوان

صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣، ص٥؛ السلوك،ج١، ق١، ص١٨٣؛ مورد اللطافة، ج٢، ص٩؛ نزهة الأساطين، ص٥٥؛ المرتضي الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط٢، بيروت،١٩٨٣، ص٧٠، رقم١٣٨.

(٣٦) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٢.

(٣٧) الدر المطلوب، ص١٥٣؛ السلوك، ج١، ق١، ص١٥٣.

(٣٨) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٤.

(٣٩) ابن المقفع، ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة، المجلد الثالث، الجزء الثاني، نشر أنطون خاطر وأزولد بورمستر، مطبوعات جمعية الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ج٣، مج٢، ص١٠٦.

(٤٠) الصاحب صفي الدين بن شكر عبد الله بن علي بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن المنصور المصري الدميري المالكي(٥٤٨– ٦٢٢هـ). المنذري: عبد العظيم بن عبد القوي، ت. ٦٥٦هـ/١٢٥٨م: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ج٥، ص٢٣٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ج٢، ص١٩٢–١٩٤، رقم ٢٢٤؛ ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي،(ت ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت،ج٦، ص٢٦٣؛ ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ، د.ت ، ج٥، ص١٠٠.

إلى برج دمياط[٤١]. وأضاف أيضا بأنها: " **كانت ثلاث ضربات ضرب الله بها المصريين الغلا والجلا والوبا وذلك بنية سلطانهم ووزيره**"[٤٢].

أما عن مدة هذه المجاعة فذكر النويري:" كان ابتداء هذا الغلاء من استقبال شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة، إلى ذي القعدة سنة تسع وتسعين، فكانت مدته ثلاث سنين وشهرًا[٤٣].

ولم تنتهي المجاعة والوباء حتى تعرضت مصر لهزات أرضية كان أشدها في يوم الاثنين ٢٦ شعبان سنة ٥٩٨هـ/ ٢٥ بشنس (مايو ١٢٠١م) جاءت من الصعيد، هدمت عددًا كبيرًا من المباني، ومات تحت الأنقاض أعداد كبيرة من البشر[٤٤]. ومهما يكن في هذه الأقوال من مبالغات، فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها، وما كانت تتعرض له من أزمات خطيرة في حالة عدم وفاء النيل[٤٥].

موقف المجتمع المصري من المجاعة والوباء

([٤١]) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج٣، ج٢، ص١٠٦؛ جارسان، جان – كلود: ازدهار وانهيار حاضرة مصرية قوص، ترجمة بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة،٢٠١٢، ص١٤٦.

([٤٢]) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٧.

([٤٣]) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، ص١٣.

([٤٤]) الإفادة، ص١٤٦-١٤٧؛ سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، دار الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠١٣م، ج٢٢، ص١٠٧؛ أبو شامة، الذيل، ص٢٠؛ الدر المطلوب، ص١٥٠؛ نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٨؛ الذهبي: العبر، ج٣، ص١١٧؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٧٤؛ السيوطي: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ، ص١١١- ١١٤؛ حسن المحاضرة، ج٢، ص١٥٦؛ العجلوني: تحريك السلسلة فيما يتعلق بالزلزلة، نشر سفيان بن عايش، دار ابن الجوزي، عمان، ص٩٩؛ عوض، محمد مؤنس أحمد: الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة،١٩٩٦، ص١١٣-١١٥؛ الويسي، هدي محمد حسين: الهزات الأرضية في بلاد الشام في القرنين(١٢-١٣م/٦-٧هـ)، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٨، ص١٢٩-١٥١؛ الشربيني، البيومي إسماعيل: تاريخ الزلازل في مصر من الفتح الإسلامي حتى مجي العثمانيين، مجلة كلية الآداب- جامعة المنصورة، العدد٢٦، ج٢، يناير٢٠٠٠، ص٥٤٣؛ شلبي إبراهيم الجعيدي: طبقة العامة، ص ٧٥؛
Lane-Pool (Stanley), A history of Egypt in the middle ages, fourth edition, London, 1925, p.216.

([٤٥]) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ص١٩٩٠، ص١٤٧.

أما عن موقف المجتمع المصري من تأخر زيادة فيضان النيل وقله ما يحمله من ماء فكثر الاستغفار والتوبة، وصيام الثلاثة أيام السابقة ليوم التروية – الثامن من ذي الحجة، كما صلوا صلاة الاستسقاء مدة ثلاثة أيام[٤٦].

موقف السلطات الحاكمة

أما موقف السلطات الحاكمة من هذه المجاعة فعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التي كانت تمر بها الدولة الأيوبية، فقد تم اتخاذ عدة إجراءات للتخفيف من الغلاء والمجاعة منها " جلب القمح من بلاد الشام" لتعويض النقص في المدن المصرية[٤٧]. وقام العادل بتقسيم الفقراء بينه وبين أمراء دولته والأثرياء من أصحاب الأموال حيث التزم العادل بإطعام ستة آلاف نفر[٤٨] وفي رواية أخرى اثنى عشر ألف نفس، وجعلهم في مناخ القصر، وأفاض عليهم القوت، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة والثراء" [٤٩]. وكان العادل يخرج بنفسه في الليل، ويفرق المال، وتم تكفين في تلك الأيام من مال العادل ثلاثمائة ألف من الغرباء" [٥٠]. وكان إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ما عليه وباعه حتى فرسه وتصدق به[٥١]. كما كان الأمير الحاجب حسام الدين لؤلؤ[٥٢] يقوم بخبز كل يوم اثنى عشر

([٤٦]) الروضتين،ج٤، ص٢٧٢؛ نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٢.

([٤٧]) السلوك،ج١، ق١، ص١٥٦.

([٤٨]) كنز الدرر،ج٧، الدر المطلوب، ص١٤٨.

([٤٩]) إغاثة الأمة، ص٣١.

([٥٠]) الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٦٨، رقم ٦٤٠؛ تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، ج٢، ص٢٠٧–٢٠٨؛ الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨، ص٢٠٠–٢٠١. ذكر البعض أن عدد من كفنهم العادل " نحوا من مائتي ألف إنسان، وعشرين ألف إنسان". السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦؛ العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي)،ج٣ حوادث(٥٩٠– ٦١٥هـ) تحقيق محمود رزق محمود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٣١؛ ابن إياس: جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٠٠.

([٥١]) تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٠٧–٢٠٨.

([٥٢]) الأمير الحاجب حسام الدين لؤلؤ، قائد البحرية في عهد صلاح الدين توفي بالقاهرة ت٥٩٧هـ. أبو شامة: الروضتين، ج٤، ص٢٧٣–٢٧٤؛ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج٢٢، ص٨٧؛ عقد الجمان (العصر الأيوبي)، ج٣، ص١٢٠–١٢١.

ألف رغيف وفي أثناء تلك المجاعة زادت إلى أربعة وعشرين ألف رغيف يفرقها على الفقراء[٥٣].

كما قام كبار الناس في الفسطاط والقاهرة من الأجناد والكتّاب وأهل الخير من المسلمين والنصارى كانوا يتصدقون على الفقراء، على حسب طاقة كل منهم[٥٤].

وقامت السلطات الأيوبية – خاصة الشرطة – بدور كبير في عقاب من يقومون بخطف الناس أو بأكل لحوم البشر بالتغريق[٥٥]، أو الحرق[٥٦]، أو الضرب [٥٧]. أو الضرب والنفي. فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي قيام أحد الأشخاص بمحاولة ذبح أحد الأطباء ولكن الناس أنقذوه منه فقام الوالي بضربه ونفيه[٥٨]. ومع ذلك فلم تنفذ تلك العقوبات على البعض إما لدفع أموال للشرطة فقد قام أحد الأشخاص بذبح امرأة سمينة وعندما هاجمت الشرطة منزله هرب منهم ثم صانع عن نفسه في خفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه[٥٩]. أو للمكانة الاجتماعية للشخص مقترف جريمة أكل لحوم البشر[٦٠].

آثار المجاعة على المجتمع المصري:

تركت تلك المجاعة وهذا الوباء آثارهما على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في مصر.

الآثار السياسية:

من الناحية السياسية فقد وقعت هذه المجاعة في بداية عهد السلطان العادل أبوبكر الأيوبي بعد أن عزل السلطان الطفل المنصور محمد بن العزيز عثمان، وقد استغل العادل هذه المجاعة في وقف المعارضة له من قبل القادة العسكريين الموالين لأبناء صلاح الدين.

([٥٣]) مرآة الزمان، ج٢٢، ص٨٧؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م،ج٢، ص٢٩١.

([٥٤]) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٦٤٧.

([٥٥]) الإفادة، ص١٥١؛ إغاثة الأمة، ص١٠٤.

([٥٦]) الإفادة، ص١٣٤.

([٥٧]) الإفادة، ص١٣٤؛ تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٨.

([٥٨]) الإفادة، ص١٣٦.

([٥٩]) الإفادة، ص١٣٦.

([٦٠]) الإفادة والاعتبار، ص١٣٦.

حيث ذكر اليافعي ذلك بقوله: " **وغلب العادل على مصر وقال: هذا صبي. وقطع خطبته، ثم أحضر ولده الكامل وسلطنه على الديار المصرية، فلم ينطق أحد من الأمراء. وسهل له ذلك اشتغال أهل مصر بالقحط**"[٦١]. وأكد ذلك الذهبي بقوله: " **ثم سلطن العادل ولده الكامل بمصر وخطبوا له، وكان المصريون في شغل عن الملك بنقص النيل**"[٦٢].

هذا في الوقت الذي حاول كل من الظاهر غازي وأخيه الأفضل علي ابنا صلاح الدين استغلال التدهور الاقتصادي والمجاعة التي تمر بها مصر، وما ترتب عليها من شدة الغلاء وارتفاع الأسعار: "وضعفت قوة الجند، وقاما بحصار مدينة دمشق، ليخرج إليهم العادل بجيوشه لنجدتها، يقوم الأمراء الموالون لأبناء صلاح الدين والمقيمون في مصر بالاستيلاء عليها"[٦٣]. كذلك نتج عن تلك المجاعة والوباء **موت كثير من رجال الدولة ومن القادة العسكريين** في مصر فترة المجاعة والوباء منهم الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي ت ٥٩٧هـ[٦٤]. وكذلك القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني[٦٥] والحاجب حسام الدين لؤلؤ قائد البحرية أيام صلاح الدين.

الآثار الاقتصادية

بالإضافة إلى ذلك فقد كان لتلك **المجاعة والوباء تأثيرهما الخطير على الحياة الاقتصادية** في مصر وقتئذ. فقد أثرت على الزراعة، التي تعتمد عليها مصر عبر تاريخها

---

(٦١) اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (المتوفى: ٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م،ج٣، ص٣٦٦؛ العريني، السيد الباز: مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٠٩؛
Wiet, L' Egypte Arabe (Historie de la Nation Egyptienne), IV, Paris,1937, p.342.

(٦٢) الذهبي: دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، ج٢، ص١٠٤.

(٦٣) مفرج الكروب، ج٣، ص١١٥-١٢٣.

(٦٤) تكملة وفيات النقلة، ج١، ص٣٨٩؛ مرآة الزمان، ج٢٢، ص١١٨-١١٩؛ تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٢٠؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٧٦-١٧٨.

(٦٥) القاضي الفاضل محي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن الشيباني، كاتب صلاح الدين ورئيس ديوان الإنشاء في عهده، وبعد وفاة صلاح الدين استقر بمصر حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص١٥٨-١٨٣؛ ابن أيبك الصفدي: الوافي، ج١٨، ص٣٣٥-٣٧٩؛

في حياتها الاقتصادية وهي الحرفة الرئيسية للسواد الأعظم من الشعب المصري، وعلى الإنتاج الزراعي عاش معظم سكانه[٦٦]، لذا فإن أي تعطيل للزراعة لأي سبب من الأسباب يعد كارثة يخشاها الجميع ويحسبون لها ألف حساب. فالمعروف أن مصر اعتمدت على ري الحياض طوال تاريخها، بمعني أن تزرع الأرض مرة واحدة في السنة بعد أن تغمر بمياه الفيضان، فإذا جاء الفيضان منخفضًا ضعف المحصول وارتفعت أسعار الغلال، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة في البلاد[٦٧]. فلم تزرع الأرض وتقلصت الأرض المزورعة لعدم وجود مياه الري[٦٨].

وكان لهروب الفلاحين من القرى إلى المدن، خاصةً القاهرة، ولموت من بقيَّ منهم بالقرى التي فنى سكانها " بحيث بقي من أهل القرية الذين كانوا خمسمائة نفر إما نفران أو ثلاثة. ثم أنه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والإسكندرية موتان عظيم ووباء شديد لاسيما عند وقت الزراعة، فلعله يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين، حيث: "كان الرجل في أسفل مصر وأعلاها يموت وبيده المحراث، فيخرج آخر للحرث فيصيبه ما أصاب الأول"[٦٩]، وأن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا[٧٠].

([٦٦]) عاشور، سعيد عبد الفتاح:" الفلاح والإقطاع في عصر الأيوبيين والمماليك"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطي، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٧، ص١٤٢.

([٦٧]) الفلاح والإقطاع، ص١٤٨.

([٦٨]) سيمينوفا، ل.أ.: صلاح الدين والمماليك في مصر، ترجمة حسن بيومي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٢٧.

([٦٩]) إغاثة الأمة، ص٣٠.

([٧٠]) الإفادة، ص١٤٥؛ المصري، جابر سلامة: الزراعة في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة القاهرة، ١٩٧٤، ص٥٤؛ طرشوبي، ليلي محمد القاسمي: الفيوم في العصور الوسطي بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة القاهرة، ١٩٧٩، ص١٦٨.

كما كان **لإهمال الجسور**[٧١] وعدم العناية بها سببًا في حدوث تلك الأزمة الاقتصادية، بطول البلاد وعرضها بحيث لم تجد من يقوم بها، ولا القرى منْ يعمل مصالحها، لعل ذلك يرجع لهروب الفلاحين من القرى أو موتهم، وعدم توفر الحيوانات التي كانت تجر الجراريف لإصلاح تلك الجسور[٧٢]. وأهملت الكثير من القناطر مثال ذلك: قناطر أم دينار[٧٣] بأعمال الجيزة فقد ذكر البغدادي: "وفي هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء فيروي الجيزة، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت، ومع ذلك فلم يرو ما رجا أن يروى"[٧٤].

كذلك كان **للآفات الزراعية** دورًا فيما أصاب الزراعة، خاصةً " الدود" الذي أصاب الأراضي التي تم زراعتها[٧٥]، وهو يتولد في الأرض أثناء انكشافها في أول فصل الخريف، حيث تحرث الأرض وتعفن الكثير مما يلقى فيها من البذور وروث الحيوانات، لذلك فإن الفيضان كان حين لا يمكث على الأرض المدة اللازمة، ويهبط بسرعة، فإن الزروع تكون فريسة للدود لأن آفة الدود غالبًا ما تظهر إذا زرع الفلاحون قبل موعد الزراعة، وذلك خوفًا من هبوط النيل بسرعة أو يظهر عقيب حر شديد، لأن الحر يعطي فرصة لنمو الدود[٧٦].

---

(٧١) الجسور: عبارة عن سد ترابي على حافة النهر أو الترعة. حيث ترجع أهمية الجسور في أنها تعمل على حماية الأراضي الزراعية والبلاد من مياه الفيضان، وتحقق أقصي فائدة ممكنة منها. وانقسمت الجسور في مصر إلي نوعين: النوع الأول؛ الجسور السلطانية: وهي التي يعم نفعها كل الأراضي. وكانت الدولة تعيين أحد الأمراء للاهتمام بهذه الجسور أطلق عليه " كاشف الجسور" أو "كاشف التراب" والنوع الثاني؛ الجسور البلدية: وهي تخص ناحية دون أخرى وعلى أهل هذه الناحية الاهتمام بها. قوانين الدواوين، ص٢٣٢؛ صبح الأعشي،ج٣، ص٤٤٨-٤٤٩؛ الخطط، ج١، ص١٦٢-١٦٣؛ ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين، ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس راويس، باريس، ١٨٩٤، ص١٢٩؛ قاسم، قاسم عبده: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٢٣.

(٧٢)إغاثة الأمة، ص٣٠

(٧٣) قناطر أم دينار: بناها بهاء الدين قراقوش في عهد صلاح الدين لتنظيم ري أعمال الجيزية. الإفادة والاعتبار، ص٩٠؛ الانتصار، ق٤، ص١٢٩.

(٧٤) الإفادة، ص٩٠؛ القاهرة الأيوبية، ص١١٨.

(٧٥) إغاثة الأمة، ص٣٠.

(٧٦) عطا، عثمان علي محمد: الأزمات الاقتصادية في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٩٢.

وكثير مما تم زرعته أكله الدود، وكثير مما سلم منها ضوى وعطب. ومن الطبيعي أن يكون القمح الذي يزرع فور انحسار الماء عن الأرض، وهو من أكثر المحاصيل تعرضًا للفساد بسبب الدود، ولذلك كثيرًا ما أعيد بذره أكثر من مرة فلم تصلح زراعته[٧٧].

وتعرضت الثروة الحيوانية إلى خسائر كبيرة، نتيجة للقحط وبالتالي يؤدي إلى فناء الثروة الحيوانية [٧٨] حيث عدمت الأبقار، بحيث بيعت الرأس بسبعين دينارًا، والهزيل بستين دينارًا

أما عن الثروة الداجنة فقد عدم وجود الدجاج جملة من أرض مصر[٧٩]، وقام البعض بجلبه من بلاد الشام، وباع كل فروج بمائة درهم، وكل بيضتين بدرهم[٨٠]. فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي: " وأما الدجاج فعدم رأسًا لولا أنه جلب منه شئ من الشام، وحكي لي أن رجلًا مصريًا شارف الفقر، فألهم أن اشترى من الشام دجاجًا بستين دينارًا، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانمائة دينار. وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدًا[٨١]. ونقل النويري عن ابن ميسر: " أنه نودي على دجاجة، تزويد فيها إلى أن بلغت ألف درهم ورقًا، وبيعت بطيخة بفرس. قال وكانت الدجاجة تباع بالأوقية[٨٢].

بالإضافة إلى ذلك فقد أثرت تلك المجاعة في نظام الإقطاع حيث عرفت مصر نظام الاقطاع العام في العصر الأيوبي، وتم تطبيقه على يد صلاح الدين، وهو يعد من السمات الأساسية التي تميز الحياة السياسية والاقتصادية في مصر في عصري الأيوبيين

---

(٧٧) الإفادة، ص١٤٢؛ عبد العزيز، أحمد عبد الرازق: الفقراء في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ماجستير آداب الزقازيق،٢٠١١م، ص٢٣.

(٧٨) حامد، عباس: الحياة الاقتصادية في مصر العليا خلال العصر المملوكي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥، ص١٢٤.

(٧٩) إغاثة، ص٣٠.

(٨٠) السلوك، ج١، ص١٥٨.

(٨١) الافادة، ص١٤٤.

(٨٢) نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٣.

والمماليك[٨٣]، والذي يعتمد على الأرض الزراعية كمصدر الثروة، وحين تضطرب إنتاجية الأرض، تضطرب دعامة مهمة من دعامات دخل الطبقة الحاكمة[٨٤].

وعندما تولي العادل الأيوبي الحكم في مصر سنة ٥٩٦هـ/١٢٩٩م أعطى ابنه الكامل محمد إقليم الشرقية وأعمالها إقطاعا له، وأقطع ابنه الفائز إبراهيم قوص وأعمالها، وأقطع ابنه المفضل قطب الدين الفيوم وأعمالها وهما من أكبر الإقطاعات[٨٥]. لذا فإن أحوال النيل نقصا أو زيادة تؤثر في جميع أركان الحياة، وكان موت أعداد كبيرة من الفلاحين سببًا في قيام الجند بزراعة الأراضي المقطعة وحصاد المحصول. فقد ذكر ابن وصيف شاه: "وصار العسكر هم الذين يزرعون ويحصدون ويدرسون ويتعاطون المصالح بأنفسهم" [٨٦].

فضلًا عن ذلك فقد تركت هذه المجاعة أثرها في **تدهور الحرف والصناعات** بسبب موت الصناع من ناحية، وانعدام وجود المواد الخام وخاصة التي تعتمد على الإنتاج الزراعي أو الثروة الحيوانية. فعلى سبيل المثال كان بالفسطاط تسعمائة منسج لصناعة الحصر، لم يبق إلا خمسة عشر منسجًا[٨٧]، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من

---

(٨٣) الفلاح والإقطاع في عصر الأيوبيين والمماليك"، ص١٤٢؛
Ayalon (D.), "The plague and its effects upon the Mamluk army", ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies***, XV, 1953, pp.67-73.

(٨٤) ربيع، حسنين محمد: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤، ص٤٠؛ الجعيدي، شلبي إبراهيم: طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٢١٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٧٣؛ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٤٤؛ الفقراء في القرنين السادس والسابع الهجريين، ص١٣.

(٨٥) السلوك، ج١، ص١٥٢؛ الفلاح والإقطاع، ص٢١٦؛ النظم المالية، ص٣١.

(٨٦) إغاثة الأمة، ص٣١؛ بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٧٦؛ ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصرية، تحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٩٧؛ العصيمي، طلال عود: الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٨٨.

(٨٧) الإفادة، ص١٤٣؛ الدر المطلوب، ص١٥٣؛ تاريخ ابن الفرات، مج٤، ق٢، ص٢٤٠؛ إغاثة الأمة، ص٣١؛ السلوك، ج١، ق١، ص١٦٠؛ النجوم، ج٦، ص١٦٢؛ حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٢؛ الطواهية، فوزي خالد علي: الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي(٥٦٧– ٦٤٨هـ/ ١١٧١– ١٢٥٠م)، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨، ص٣٠٣؛ أزهار غازي مطر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في ظل الدولة الأيوبية، رسالة دكتوراه، كلية التربية – جامعة بغداد، ٢٠١٣م، ص٣٠٨.

باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف، فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك"[٨٨]. وتعطلت كافة الصنائع وتلاشت الأحوال[٨٩].

ولم يقتصر تدهور الحرف والصناعات على الفسطاط والقاهرة، بل شمل جميع البلاد المصرية، فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي: " قال لي بعضهم إنه مر ببلد ذكرنا أن فيها أربعمائة دكان للحياكة[٩٠]، فوجدناها خرابا، وأن الحائك فِي جورة حياكته ميت، وأهله موتى حوله[٩١].

ومن جهة أخري فقد **ارتفعت أجور بعض الفئات الدنيا من العمال والحرفيين**، في حين انكمشت الطبقة الوسطي من العلماء والفقهاء والموظفين ونحوهم، وأضحوا بين ميت أو مشتهي الموت لسوء ما حل بهم.

بالإضافة إلى ذلك فقد أثرت تلك المجاعة على حركة **النقل التجاري النهري** الذي كان يقوم بدور كبير في حركة التبادل التجاري بين مدن الوجه القبلي والبحري، حيث تعرضت المراكب خاصة تلك التي تحمل الغلال من الوجه القبلي لحركة نهب، لذلك كانت تربط تلك المراكب بعد وصولها إلى ساحل بولاق بالمرسى بعيدًا عن الشاطئ، خوفًا من النهب، ويتوجه من يريد الشراء إليها بقوارب صغيرة.

كما أصبحت **الطرق التجارية البرية غير أمنه على المسافرين**، وانتشر بها القتل خاصة طريق الفيوم والإسكندرية حيث وجد في " طريق الفيوم أناس يرخصون وسائل النقل للمسافرين فإذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم واستولوا على أمتعتهم وأموالهم، وقامت الشرطة بالقبض على بعض قطاع الطرق الذين يقومون بقتل المسافرين والاستيلاء على أموالهم حيث ظفر الوالي بجماعة منهم، وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار[٩٢].

([٨٨]) الإفادة، ص١٤٣؛ ماهر، سعاد: الحصير في الفن الإسلامي، القاهرة، د. ت.، ص٢٥-٢٦؛ سلام، حورية عبده: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٤٦

([٨٩]) الإفادة، ص١٤٣؛ إغاثة الأمة، ص٣١.

([٩٠]) الحياكون: الحائك والنساج هم الحاكة والحوكة وقد حاك الثوب يحوكة وحياكة ونسح الحائك الثوب ينسجه نسجا وهو النساج وحرفته النساجة ابن سيده: المخصص، ج١٢، ص٢٥٩-٢٦٠.

([٩١]) الإفادة، ص١٣٩.

([٩٢]) الإفادة، ص١٣٨.

وقد أثرت هذه المجاعة على الأسواق حيث عدمت الأقوات، وانعكست الآثار السلبية لهذه المجاعة على حركة الأسعار في مصر، مما أدى إلى شقاء الناس وفقرهم وبؤسهم، ومن الطبيعي أن ترتفع أسعار السلع الأساسية، وخاصة الغلال كالقمح والشعير والفول وغيرها، التي تدخل في غذاء الإنسان، مما أدى إلى حدوث غلاء[٩٣]، فقد كانت أسعار القمح في عهد صلاح الدين كل عشرة أرادب[٩٤] بدينار واحد، وفي عهد العزيز عثمان كل مائة إردب بمائة وسبعون دينار، ثم عدم القمح والشعير إلا القليل حتى بيع إردب القمح إن وجد بثمانية دنانير والشعير والفول بستة دنانير[٩٥]. وفي هذه الأزمة تم استخدام نظام المزايدة في بيع بعض السلع حيث " نودي على دجاجة، تزويد فيها إلى أن بلغت ألف درهم ورقًا"، كما تم استخدام نظام المقايضة في عمليات البيع والشراء حيث: " بيعت بطيخة بفرس"[٩٦].

وكان من الطبيعي أن تستغل طائفة التجار حدوث الأزمات والكوارث لجنى أكبر قد ممكن من الأرباح الكثيرة والمكاسب المتعددة، من خلال احتكار السلع، دون مراعاة للفئات المطحونة. وخاصة تجار الغلال الذين يمثلون أكبر وأكثر استغلالًا لحدوث الأزمات الاقتصادية، فكانوا يسارعون بتخزين الغلال طمعًا في الحصول على أرباح أكثر عن طريق رفع الأسعار، وكانوا يختارون توقيتًا قاتلًا ألا وهو بداية زيادة النيل لتنفيذ مخططهم، فيشترون جميع الكميات المعروضة للبيع في الأسواق ويحتكرونها، ثم يعملون على إطلاق الشائعات بأن النيل لن يبلغ الوفاء، ولذلك يشتد الإقبال على شراء الغلال، بينما يقل المطروح من البضائع في الأسواق، ويشتد تزاحم الناس على الأفران، والأسواق وحوانيت بيع

([٩٣]) عوض الله، الشيخ الأمين محمد: أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٩٥، القاهرة، ٢٠١٤، ص١٣١.

([٩٤]) الإردب: مكيال أهل مصر، وهو أربعة وعشرون صاعًا أي يساوي= ٢٤ x٢٠٤٠=٤٨٩٦٠ جرام. ابن الرفعة: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، تحقيق محمد أحمد إسماعيل الخاروف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٧٣؛ المقريزي: الأوزان والأكيال الشرعية، تحقيق سلطان بن هليل بن عيد المسمار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٨٠؛ فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠، ص٥٨-٥٩.

(٩٥) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٨.

(٩٦) نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٣.

الغلال، مما يؤدي بطبيعة الحال إلى ارتفاع كبير في الأسعار، ويمتد الأمر" إلى كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس"، وقد ارتفعت أرباح التجار ارتفاعًا فاحشًا، وقد يلجا بعض التجار إلى أساليب الغش أثناء تلك الأزمة فيخلطون الدقيق الجيد بغيره من الردئ.

وفي بعض الحالات يتعرض التجار لخسائر فادحة، بسبب امتناعهم عن بيع الغلال، وعندما يحدث الرخاء مرة أخري لم ينتفعوا بشئٍ منها، بل رموها لأنها تلفت ولا تصلح لأي شئ، فقد ذكر المقريزي: " ومع ذلك كانت المخازن مملوءة غلالًا، والخبز متيسر الوجود يباع كل رطل بدرهم ونصف، وزعم كثير من أرباب الأموال أن هذا الغلاء كسني يوسف عليه السلام، وطمع أن يشتري بما عنده من الأقوات أمال أهل مصر ونفوسهم، فأمسك الغلال وامتنع عن بيعها، فلما وقع الرخاء ساست كلها – أي أصابها السوس– ولم ينتفع بها فرماها وأصيب كثير ممن اقتني المال من الغلال، فبعضهم مات عقب ذلك شر ميتة، وبعضهم أجيح في ماله"[٩٧]. ومن المستغرب أن الدولة لم تتخذ أي إجراء ضد محتكري الغلال الذين ابقوا عليها في مخازنهم.

كما تأثرت موارد الدولة المالية بسبب هذه الأزمة حيث فقدت الدولة كثير من موارد بيت المال ولم تستطع الدولة أن تجبي الخراج[٩٨] والزكاة والمكوس[٩٩].

الآثار الاجتماعية

كان من الطبيعي أن تُحدث هذه المجاعة مجموعة من التغيرات التي أثرت في البنية الاجتماعية، مما أدي إلى ظهور خلل اجتماعي تمثل في انكماش الشريحة الوسطي من المجتمع وهم ميسوري الحال، في حين تضخم طرفي الهرم الاجتماعي أي الطبقة العليا والدنيا من المجتمع المصري[١٠٠]. فقد تزايد ثراء الطبقة العليا التي تضم أهل الدولة وكبار الأمراء والتجار، وانضم إليهم أشخاص جدد منهم من أصبح ثريا بسبب متاجرته في سلعة

---

(٩٧) إغاثة الأمة، ص١٠٥-١٠٦.

(٩٨) النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص٥٦. الخراج: هو الضريبة السنوية المفروضة على الأراضي التي تزرع حبوبًا ونخلًا وعنبًا وفاكهة، يدفعها الفلاح للمقطع ليؤديها بدوره إلى خزانة الدولة، بعد استقطاع مختلف المصروفات. النظم المالية، ص٤١.

(٩٩) النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص٥٦-٥٧.

(١٠٠) العاملي، محمد:" المجاعة والوباء في مصر من خلال مقالات الطبيب عبد اللطيف البغدادي"، الأيام الوطنية العاشرة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٠٠٢، ص١٦٣.

معينة كالقمح وغيره من المواد، فعلى سبيل المثال أن رجلًا مصريًا شارف الفقر فألهم أن يشتري من الشام دجاجًا بستين دينارًا، وباعها بالقاهرة بنحو ثماني مائة دينار، ومنهم من أصبح غنيًا بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف(١٠١). وأن تركة واحدة بمدينة الإسكندرية انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارث(١٠٢).

ومن آثار تلك المجاعة أيضا انتشار ظاهرة السرقة وانتشر اللصوص في الأسواق لسرقة ما يشتريه الناس: " وكانوا جماعة من الناس صبيان شباب يقفون في الأسواق الليل والنهار ويخطفون ما يشتروه الناس"(١٠٣). وكان الولد يخطف الخبز من يد أبوه ليحي به نفسه والأب يخطف من ولده حتى يحيي نفسه(١٠٤)، ثم قل خطف الأطعمة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم مِن المدينة، وانحطت الأسعار حتى عاد الأردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول(١٠٥).

لعل أهم الآثار الاجتماعية لهذه المجاعة كثرة الأموات حتى قدر أن ثلثي سكان مصر قد ماتوا في هذا الوباء، فعلى الرغم من أن مصر تعرضت لكثير من المجاعات والأوبئة نتيجة نقصان ماء النيل إلا أنها لم تكن بكارثية تلك المجاعة، والتي تعد الكارثة السكانية الثانية في تاريخ مصر في العصور الوسطى. فقد كانت مجاعة أيام المستنصر نقطة تحول في تطورها السكاني، عندما توقف التوسع المديد وعندما تم انتعاش البلاد جزئيًا خلال القرن السادس الهجري أتت الضربة الثانية التي أنقصت السكان مرة أخرى(١٠٦). ويقدر رسل Russell في دراسة له عن سكان مصر في مصر العصور الوسطي في نهاية القرن الثاني عشر بـ ٢,٥ مليون نسمة(١٠٧). وذكر ابن الجزري بأنه:" أحصى من هلك في هذه السنة–

---

(١٠١) الإفادة، ص١٤١

(١٠٢) الإفادة والاعتبار، ص١٤٦

(١٠٣) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٧.

(١٠٤) تاريخ بطاركة الكنيسة، مج٣، ج٢، ص١٠٧.

(١٠٥) الإفادة والاعتبار، ص١٤٣.

(١٠٦) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٣٠٤.

(١٠٧) بلقاسم طباطبي: الموت في مصر والشام، الدار التونسية للكتاب، تونس، ٢٠١٤؛
Russell, (J. C.), "The Population of Medieval Egypt", ***Journal of American Research Center in Egypt***, vol. V, 1966, p. 69.

٥٩٧هـ- فكان ألف ألف ومئة ألف إنسان"[١٠٨]، فقد خلت مدينة القاهرة ومصر من أكثر أهلها، وصار منْ يموت لا يجد منْ يواريه، فيصير عدة أشهر حتى يؤكل أو يبلى[١٠٩].

وفي تلك الأزمة الاجتماعية نهضت مغاسل الموتى ومصليات الجنائز وقامت بدور كبير حيث تجهيز الموتى فينقوا إليها ليغسلوا ويجهزوا بها للدفن، ثم يصلي عليهم صلاة الجنازة، ثم ينقلوا إلى المقابر[١١٠]، وكان يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين المائة والخمسمائة[١١١].

ونتج عن كثرة عدد الموتى في جميع البلاد المصرية وخاصة القاهرة نشاط ديوان المواريث الحشرية[١١٢]، وأصبحت المواريث الحشرية تمثل موردًا ماليًا مهمًا من موارد بيت المال بسبب هذه المجاعة والوباء وكثرة من مات وآل أملاكه لبيت المال[١١٣]. وقد اشترط مباشرو ديوان المواريث الحشرية على مغسلي الموتى بألا يجهزوا الميت إلا بعد إعلامهم، ليقوموا بحصر تركته، وبيان ما إذا كان له وارثة، أم تحول التركة إلى بيت المال[١١٤]، والذي

([١٠٨]) المختار من تاريخ ابن الجزري، ص٧٤.

([١٠٩]) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٧.

([١١٠]) الحداد، محمد حمزة: قرافة القاهرة من الفتح الإسلامي إلى العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٣٤٤-٣٤٧.

([١١١]) الإفادة والاعتبار، ص١٣٨.

([١١٢]) المواريث الحشرية: هي مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض، ولكنه لا يستغرق كل المال ولا عاصب له، فيؤول المال أو العقارات أو الأراضي أو الباقي منه إلى ديوان المواريث ومنه لبيت المال، حيث تعد من موارد بيت المال الشرعية، ويسمي ديوان المواريث الحشرية أو ديوان الحشر، أو ديوان التركات الحشرية. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٣، ص٥٣٢.

([١١٣]) النظم المالية، ص٤٧، ٧٨-٧٩؛ الشربيني، البيومي إسماعيل: " المواريث الحشرية في عصر سلاطين المماليك"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة،عدد٤٥، ٢٠٠٩،، ص٩؛
Rabie H.M, The Financial System of Egypt 564-741, London, 1972, P.127.

([١١٤]) ذكر ابن مماتي: " فأما عادة المستخدمين الآن فيها جارية بأخذ الحجج على الغسال والحمالين وعرفاء الأكفان بأنهم لا يجهزون ميتًا إلا بعد أن يعلموا المستخدمين في المواريث ويستطلقوا منهم ويبحث عنهم المكفنون، فإن كان له وارث أطلقوه ولم يتعرضوا لشيءٍ من تركته، وإن كان حشريًا لا وارث له أو لبيت المال في تركته نصيب، احتاطوا على ما خلفه وأثبتوه، وجهزوا الميت بما لابد منه، وأخذ كل ذي حق حقه من بيت المال وغيره، فإن كان له وارث غائبًا، احتيط على تركته إلى أن يحضر ويثبت الاستحقاق، ويشهد

تم تسجيله في ديوان المواريث الحشرية في مدة اثنين وعشرين شهرا أولها شوال سنة ٥٩٦هـ إلى رجب سنة ٥٩٨هـ مائة ألف وإحدى عشرة ألفًا إلا آحادًا[١١٥]، بالقاهرة من أصحاب التركات فقط، مع ملاحظة أن معظم الأموات في الأوبئة كانوا من الأطفال والعبيد والإماء والغرباء ورعاع الناس والفقراء مما لا يملكون أموالًا ولا عقارًا تورث، ولم يلتفت إليهم مباشرو ديوان المواريث الحشرية، بل كان اهتمامهم كان ينصب بالدرجة الأولي على الأثرياء أصحاب التركات، لذا نجد أعداد الموتى " **الطرحى**" أو" **الطرحاء**"[١١٦] الذين لم ترد أسماؤهم ديوان المواريث كانوا أضعاف من سجل فيه[١١٧]. وكان يتم تكفينهم من بيت المال أو أحد يتصدق بذلك، أو يتم تركهم مطروحين في الطرق والشوارع [١١٨].

وبطبيعة الحال كان لانتشار الفقر، وتزايد عدد الفقراء عقب المجاعة، إذ يضطر الناس لبيع ممتلكاتهم لشراء ما يقتاتون به ومن ثم يدخلون في عداد المعدمين، بينما تزدحم القاهرة بالوافدين من القرى بحثا عن الطعام الذي يوزع بها أحيانا خلال هذه الأزمات[١١٩].

ونتج عن هذه المجاعة كثرة الهجرة من الريف إلي المدن فقد عاش الفلاح المصري مربوطًا بالأرض التي يقيم بها، وارتبط أيضا بفيضان النيل وزراعة الأرض، فإذا جف النيل لم تزرع الأرض وبالتالي عاش الفلاح في فقر وحرمان، مما يضطره إلي ترك قريته والهجرة إلي المدن وخاصة العاصمة أملًا في وجود حياة أفضل. وهو ما ذكره عبد اللطيف البغدادي: "وضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد، وجلي كثير إلَى البلاد النائية، ومزقوا كل ممزق. ودخل منهم خلق إلى القاهرة، واشتد بهم الجوع، ووقع فيهم الموت عند

الديوان بما احتاط عليه، ويوقع الإفراج عنه، وإن كان الديوان صرف شيئًا من ذلك أعاد نظيره من جملة الارتفاع". قوانين، ص١٤؛ Rabie, The Financial System of Egypt, p.128.

(١١٥) ستانلي، لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخران، النهضة المصرية، ط٢، القاهرة، ص١٧٤

(١١٦) الطرحاء: جمع طريح بمعني: رمى به، والشئ المطروح: لا حاجة لأحد فيه، والطريح الملازم للفراش، أو الملقى على الطرقات من الغرباء، ويقصد به الأموات من الفقراء ومجهولي الهوية الملقون على الطرقات الخارجية، أو في الشوارع للمدن. لسان العرب، ج٣، ص٣٦٠-٣٦١؛ المواريث، ص٢٦.

(١١٧) المواريث الحشرية، ص١٧.

(١١٨) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦.

(١١٩) النيل والمجتمع المصري، ص٥٤.

نزول الشمس الحمل. ووبئ الهواء[١٢٠]. وأكد ذلك المقريزي بقوله: " فتكاثر مجئ الناس من القري إلى القاهرة من الجوع"[١٢١].

ولم يقتصر الأمر على الانتقال والهجرة من الريف إلي المدن المصرية، بل الهجرة إلى خارج الديار المصرية. سواء إلى بلاد الشام أو إلى بلاد المغرب. فقد ذكره عبد اللطيف البغدادي: " أما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصرة، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وأن طلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم. وأول منْ هلك في هذه الطريق أهل الحوف[١٢٢]، عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس، ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن – زمن المؤلف– وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزق"[١٢٣].

كذلك ذكر أحد المعاصرين بأنه: " خرج من مصر عالم كبير وأولادهم إلي الشام، فماتوا في الطرقات جوعًا. وشنع الموت في الأغنياء والفقراء، وهلكت الرعية وتفرقت وتشتت الخلايق وتمزقت ومضى خلق كثير من ديار مصر إلي الشام بأموالهم وأولادهم فهلكوا وأخذوهم العربان وأخذ النفوس والأموال حتى كان الرجل منهم يموت ولده أو أخوه أو أعز الناس عنده فيتركه مطروحًا، ويروح ولا يقدر يقف حتى يدفنه في الرمل بل ينجا بنفسه مع الناس ولا يلتفت إلى وراه ولا ينقطع من رفيقه فيهلك. وأخبرني من شاهد الخلق موتًا رمم من باب بلبيس إلى باب غزه هم ودوابهم ومواشيهم الواحد إلي جانب الآخر"[١٢٤]. وصار إلى بلاد الفرنج منهم جمع حملوا إلى الجزائر البحرية. وأقر كثير ممن تفرق في البلاد بالعبودية

([١٢٠]) الإفادة والاعتبار، ص١٣٢.

([١٢١]) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٧؛ إغاثة، ص٢٩.

([١٢٢]) الحوف أو الحوف الشرقي أو الشرقية: هي أسماء مرادفة لإقليم الشرقية. ياقوت الحموي، أبو عبد الله الرومي، ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٩م: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ص١٤٩، ٢٧٣؛ الشاعر، محمد فتحي: الشرقية عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧، ص٩٠.

([١٢٣]) الإفادة، ص١٣٩–١٤٠؛ السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦.

([١٢٤]) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٧.

لمن يؤويه ويطعمه[١٢٥]، كما انتقل من مدينة الإسكندرية " طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفا إلي برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها"[١٢٦].

كذلك ذكر السيوطي نقلًا عن العماد الأصفهاني: " وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرقت فرق مصر في الأمصار، ولقد رأيت الأرامل على الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم"[١٢٧]، وهرب الناس منها نحو الشام، ولم يصل إلا القليل منهم، وتخطفتهم الفرنج من الطرقات، وعزوهم في أنفسهم، واغتالوهم بالقليل من الأقوات[١٢٨].

ومن الظواهر الاجتماعية التي نتجت عن هذه المجاعة **إلقاء الأمهات لأطفالهن في الطرقات والشوارع لعدم القدرة على إطعامهم.** من ذلك ما ذكر عن نساء مدينة المحلة " وكانوا نساء مرضعات يعجزون من الجوع عن الرضاعة فيرموا أولادهم في جامع المحلة، وغيرها من المدن في جميع ديار مصر فيرموا الأطفال أولاد شهر وشهرين وثلاثة، وفوق ذلك في الجوامع والمساجد والطرقات والأسواق بالليل فيأتي نساء آخر ورجال فيأخذوهم في أقمطتهم أنهم يربوهم لله فيأكلوهم وقوم يربوهم وكان كل يوم يصبح في جامع المحلة منهم جماعة كبيرة فلا يجي المساء حتى يأخذوهم[١٢٩].

كذلك من الظواهر الاجتماعية التي نتجت عن تلك المجاعة **بيع الأحرار**، وخاصة من البنات والأطفال، وذلك من أجل الطعام. فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي: "وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند منْ لا يراقب الله، حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة،

([١٢٥]) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦.

([١٢٦]) الإفادة، ص ١٤٥-١٤٦؛ عقد الجمان (العصر الأيوبي)، ج٣، ص١٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م،ج٢، ص٢٩١؛ الشيال، جمال الدين: تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٨٢؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٢٧٠-٢٧١.

([١٢٧]) مرآة الزمان، ج٢٢، ص ٩٠.

([١٢٨]) حسن المحاضرة،ج٢، ص٢٩١.

([١٢٩]) جامع المحلة أو الجامع العمري بالمحلة وتبلغ مساحته فدانين ويبدوا من اللوحة التأسيسية الموجودة بالمسجد أنه تم بناءه سنة ٥٠٨هـ. مبارك، علي: الخطط التوفيقية الجديدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة،١٩٨٧، ج١٥، ص ١٨-١٩.

وعرض عليَّ جاريتان مراهقتان بدينار واحد، ورأيت مرة أخرى جاريتين إحداهما بكر ينادى عليها بأحد عشر درهمًا. وسألتني امرأة أن اشترى ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ، بخمسة دراهم فعرفتها أن ذلك حرام، فقالت خذها هدية، وكثيرًا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم، وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك"[١٣٠]. وهو ما يؤكده أحد الكتَّاب المعاصرين: "وناس كثير باعوا بنيهم وبناتهم كالمماليك للخدمة واحتجوا بقولهم نبيعهم لمن يطعمهم الخبز فيعيشوا به أصلح من أن يموتوا بالجوع"[١٣١].

ومن الآثار الاجتماعية التي وجدت أثناء هذه الأزمة الانحلال الخلقي حيث استغل البعض شدة احتياج بعض النساء للطعام لممارسة الفاحشة في مقابل القليل من المال. فقد أشار البغدادي إلي ذلك بقوله: "وأعجب من جميع ما اقتصصناه[١٣٢] أن الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يرعوون منغمسون في بحر ضلالاتهم، كأنهم هم المستثنون. فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار متجرًا ومكتسبًا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعم أنه افتض خمسين بكرًا ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر (أي مبلغ يسير أي كسر الدرهم أو الدينار)[١٣٣].

ومما شاع أيضا **نبش القبور** وأكل الموتى وبيع لحمهم، وهذه البلية وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلا وقد أكل فيه الناس أكلًا ذريعًا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحي[١٣٤].

كما انتشر **الشحاذة والتسول** "وضعفت قوة الخلق من الجوع والموت وما بقي أحد إذا طلب يقول لله كسره ولا لقمة بل يقول لله لُبابه هذا كان قول من يطلب" [١٣٥].

فضلًا عن ذلك **فإن الأشياء فقدت قيمتها** " فباعوا الناس من الأثاث والقنايا والدور والجوار والعبيد مما قيمته دينار بدرهم"[١٣٦].

---

(١٣٠) الإفادة، ص١٤٠.

(١٣١) تاريخ بطاركة الكنيسة، مج٣، ج٢، ص١٠٧.

(١٣٢) الإفادة، ص١٤٠.

(١٣٣) الإفادة، ص١٤٠.

(١٣٤) الإفادة، ص١٣٧.

(١٣٥) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٨.

(١٣٦) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٨.

الآثار النفسية

ومن الطبيعي أن يترك كثرة الموت نتيجة المجاعة ثم الوباء آثاره النفسية على أهل مصر حيث حدث نوع من التبلد وعدم الاكتراث بالموت. وذكر عبد اللطيف البغدادي قوله: "ورأيت امرأة في السوق ومعها صغير مشوي وهي تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها مقبلون على أشغالهم لم أر فيهم من يعجب من فعلها فعاد تعجبي منهم أشد وما ذاك إلا لكثرة تكرره[١٣٧]. وذكر عبد اللطيف البغدادي أيضا: "رأيت امرأةً قد أُحضرت إلى الوالي وفي عنقها طفل شوي، فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تُحيرُ جوابًا، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سُحبت فماتت[١٣٨].

كما يُجمل أحد الكتَّاب المعاصرين الحالة النفسية بقوله: " وجملة الأمر أنهم أكلوا بعضهم بعض وكان القوي يقوى على الضعيف فيأكله ولم يبق أحد يواري أحد التراب، وهان الموت حتى صاروا مطروحين في الشوارع والأزقة والطرقات والكيمان، ولا أحد يبكي على أحد ولا امرأة تندب ولا تنوح وانقلعت الحنه (الحنية من) قلوب الناس وانقطع من الحياة الرجاء وحصل اليأس"[١٣٩].

وقد أشار عبد اللطيف البغدادي إلى تغير مزاج الناس بقوله: " **وألف الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي**"[١٤٠]. وصور المؤرخ أبو شامة الحالة النفسية بقوله: " فقنط الناس، ووقع اليأس وأشتد المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح" [١٤١].

([١٣٧]) ابن الساعي(أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م): الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، نشر مصطفي جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، ج٩، ص٤٨.

([١٣٨]) الافادة والاعتبار، ص١٣٤.

([١٣٩]) تاريخ بطاركة، مج٣، ج٢، ص١٠٨.

([١٤٠]) الإفادة، ص١٤٣.

([١٤١]) كتاب الروضتين،ج٤، ص٢٧٢.

أثار المجاعة على العمران

تركت هذه المجاعة أثرها على عمران[١٤٢] المدن المصرية وخاصة القاهرة والفسطاط حيث أدت إلى خراب كثير من أحياء تلك المدن. فقد وصف المقريزي في خططه حال مدينة الفسطاط بقوله: " كانت المحنة من الغلاء والوباء العظيم في سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب لسنتي خمس وست وتسعين وخمسمائة، فخرب من مصر جانب كبير"[١٤٣].

وأما الأفران فإنها توقد بأخشابِ الدور، فيشتري الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه[١٤٤] وأخشابه أيامًا، ثم يشتري آخر، وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلًا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرًا. وكثيرًا ما تقفر الدار بمالِكها ولا يجد لها مشتريًا فيفصِل أخشابها وأبوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها مهدومة[١٤٥]. هو ما يؤكده المقريزي بقوله: "وكانت جماعة من أهل الستر يخرجون في الليل ويحطبون من المساكن الخالية، ويبيعونها نهار[١٤٦]. بحيث لم يبق لأهل المدينة وقود في تنابيرهم وأفرانهم وبيوتهم إلا خشب السقوف والأبواب والزروب[١٤٧]. وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لا يرى فيها من الدور المسكونة إلا القليل، ولم يبق بمصر(الفسطاط) إلا شط النيل[١٤٨]. وذكر عبد اللطيف البغدادي بعد نهاية المجاعة إلي مدينة الفسطاط بقوله: " ثم أننا دخلنا مصر فرأينا

---

(١٤٢) العمران من عمر، وتعني المسكن العامر بأهله، أو تطلق على ما يعمر به المكان. والعمارة نقيض الخراب، ومكان عامر: ذو عمارة، والعمارة بالكسر ما يُعمر به المكان. الزمخشري، جار الله أبو القسم محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م: أساس البلاغة، القاهرة، ١٩٢٣، ج٢، ص١٤١؛ ابن منظور، محمد بن أبي العز المصري، ت. ٧١١هـ/١٣١١م: لسان العرب، ج٦، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٢٧٨–٢٧٩، ٢٨٨؛ الزبيدي، محمد مرتضى الزبيدي، ت ١٢٠٥هـ/١٧١٩م: تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، د.ت، ج٣، ص ٤٢١–٤٢٢، ٤٢٥.

(١٤٣) المقريزي: الخطط،ج٢، ص١٤٦.

(١٤٤) الزروب: جمع الزربية لا الزريبة. نوع من الأرصفة المبنية على أوتاد أو دعائم على شواطئ النيل أو البرك. عبد اللطيف البغدادي: الإفادة، ص١١٤؛ الخطط، ج٣، ص ٤٣٦، هامش(٢).

Garcin, J. C., "Toponymie et topographie urbaines médiévales à Foustat et au Caire" ***Journal of the Economic and social History of the orient***, XXVII, 1984, p. 133, n.81.

(١٤٥) الإفادة، ص ١٤٤.

(١٤٦) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٨؛ إغاثة، ص٣٠.

(١٤٧) الإفادة، ص١٤١.

(١٤٨) السلوك، ج١، ق١، ص١٥٨؛ إغاثة، ص٣٠.

منها دروبًا وأسواقًا عظيمة كانت مغتصة بالزحام، والجميع خال ليس فيه حيوان إلا عابر سبيل في بعض الأحايين، وأن المار فيها ليستوحش"[١٤٩].

وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك، فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس، حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها أكثرها حال خراب، وإن ربعًا[١٥٠] في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسين بيتًا كلها خالية سوى أربعة بيوت أَسكنت من يحرس الموضع[١٥١]. وأما الهلالية[١٥٢] ومعظم الشارعِ ودور الخليج[١٥٣] وحارة الساسة والمقس[١٥٤] وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس، وإنما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيرًا من أهلها موتى فيها، ومع ذلك فالقاهرة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة.

وأما الأملاك ذوات الآجر المعتبرة، فإن معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها إلا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها أو إسكانها من يحرسها بأجرة، اللهم إلا ما كان من الملك في قصبة المدينة فإن بعضه مسكون بأخف أجرة، وأعرف ربعًا في أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين دينارًا، فعادت في هذه السنة إلى نحو عشرين دينارًا، وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشهر ستة عشر دينارًا، فعادت إلى فُويق الدينار، وجميع ما لم نذكره على هذا القياس أفهمه[١٥٥].

---

(١٤٩) الإفادة، ص١٥٠-١٥١.

(١٥٠) الرَبع (بتشديد الراء وفتحه) جمع ربوع (بضمتين) ورباع (بكسر الراء) الدار التي تشتمل على غرف عديدة لكل أسرة غرفة، وغالبا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت. أمين، محمد محمد: المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، نشر الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠، ص٥٢.

(١٥١) الإفادة والاعتبار، ص١٤١.

(١٥٢) الهلالية: حارة الهلالية تقع على يسار السالك في الشارع خارج باب زويلة متجها إلى الجنوب، وفي أولها اليوم من الجهة البحرية الدرب المعروف بدرب الدالي حسين. النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤.

(١٥٣) خليج القاهرة: كان يعرف بخليج أمير المؤمنين والخليج الحاكمي والخليج المصري، وهو يقع غربي مدينة القاهرة، كان يخرج من النيل (فم الخليج)، ومكانه الآن شارع بورسعيد بالقاهرة. ابن عبد الظاهر، محيي الدين بن عبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص١١٥-١١٦.

(١٥٤) المقس: كان يعرف بقرية أم دنين، وهي محلة ظاهر القاهرة غربي الخليج، وتمثل الآن المنطقة التي يقع بها جامع الفتح بميدان رمسيس. الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص١٢٥-١٢٦.

(١٥٥) الإفادة، ص١٤٥.

الآثار الفكرية:

تركت هذه المجاعة وما تبعها من الوباء آثارها على **الحياة الفكرية والعلمية في مصر** ففي جانبها السلبي فقد أدت إلي موت كثير من العلماء والفقهاء من ناحية. ومن ناحية أخرى فقد أثرت تلك الأزمة في المؤسسات العلمية والدينية من المدارس والجوامع والزوايا والخانقاوات والبيمارستانات وغيرها. وقد أوقف صلاح الدين وخلفاءه على هذه المؤسسات كثير من الأوقاف وخاصة من الأراضي الزراعية[١٥٦]. كمورد للإنفاق عليها وكان لعدم زراعة الأراضي الموقوفة على تلك المؤسسات معناه توقف المورد المالي للإنفاق عليها، وبالتالي عدم أدائها وظيفتها التعليمية والعلمية.

ومن الفئات التي كانت تتعرض للخطف والذبح **الأطباء والقوابل** بحكم احتياج الناس إليهم[١٥٧]. إذ فقد الكثير من الأطباء لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضي، فإذا صار الطبيب إلى داره ذبحه وأكله حيث ذكر عبد اللطيف البغدادي: " واتفق أن شخصا استدعى طبيبا، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف. فصار ذلك الشخص يكثر في طريقه ذكر الله، ولا يكاد يمر بفقير إلا ويتصدق عليه، حتى وصلا إلى الدار، فإذا هي خربة. فارتاب الطبيب مما رأى، وبينما هو يريد الدخول إليها إذ خرج رجل من الخربة، وقال للشخص الذي قد أحضر الطبيب: "مع هذا البطء جئت لنا بصيد واحدًا" فارتاع الطبيب، وفر على وجهه هاربًا. فلولا عناية الله به، وسرعة عدوه، لقبض عليه"[١٥٨].

([١٥٦]) أمين، محمد محمد: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٦٢-٦٤؛ " الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك"، مؤسسة أل البيت، الأردن، ١٩٩٠، ص٨٠٨-٨٠٩.

([١٥٧]) الإفادة، ص١٣٦.

([١٥٨]) الإفادة، ص١٣٤-١٣٥، ١٤٦؛ السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦-١٥٧.

ومن **الآثار الفكرية الايجابية** التي نتجت عن هذه المجاعة ما قام به الطبيب والرحالة عبد اللطيف البغدادي والذي كان يقيم بالقاهرة وقتئذ من تأليف كتابه" **الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**" سجل فيه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها[١٥٩] وذلك في رمضان سنة ستمائة بالقاهرة. وفرغ من تأليفه في العاشر من شعبان سنة ثلاث وستمائة ببيت المقدس[١٦٠].

فضلًا عن ذلك فقد كان لكثرة جثث الموتى المطروحين في الشوارع والطرقات فرصة جيدة للأطباء لدراسة علم التشريح حيث كانوا يعتمدون على الدراسة النظرية. وحاول عبد اللطيف البغدادي[١٦١] ومعه بعض الأطباء الاستفادة من تلك الجثث في دراسة علم التشريح. فقد ذكر أنه " وجد رجل وقد جردت عظامه عن اللحم، فآكل وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم، ومثل هذا أعوز جالينوس[١٦٢]، مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة، وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح"[١٦٣].

([١٥٩]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة ، بيروت، د.ت،ج١، ص٦٨٩.

([١٦٠]) عيون الأنباء، ج١، ص٦٩٤؛ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج٩، ص٤٧.

([١٦١]) موفق الدين عبد اللطيف بن أبي العز يوسف بن محمد بن علي، البغدادي، الشافعي النحوي اللغوي المتكلم الطبيب الفيلسوف، ولد ببغداد سنة ٥٥٧هـ وتوفى ت٦٢٩هـ/١٢٣١م. القفطي: إنباء الرواة، ج٢، ص ١٩٣– ١٩٦؛ المنذري: التكملة لوفيات النقلة،ج٣، ص٢٩٧– ٢٩٨، رقم ٢٣٦٨؛ عيون الأنباء،ج٢، ص ٢٠١– ٢١٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٤٥، ص٣٥٣–٣٥٨، رقم٥٢٢؛ سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص٣٢٠–٣٢٣، رقم ١٩٥؛ فوات الوفيات، ج٢، ص١٦–١٩؛ الوافي بالوفيات، ج١٩، ص١٠٧–١١٥، رقم٩٩؛ غليونجي، بول: عبد اللطيف البغدادي طبيب القرن السادس الهجري شخصيته، انجازاته، سلسلة أعلام العرب، رقم ١١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥؛
Johannes Mousley, A.M., Abdollatiphi Bagdadensis Vita, Auctore Ibn Abi Osaiba, Oxonii, Etypographeo Clarendoniano. MDCCCVIII.

(١٦٢) جالينوس: هو طبيب وفيلسوف يوناني، ويُعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة ولد سنة ١٣١م في برغامس في ميسيا بآسيا الصغرى، وتوفي في صقلية حوالي سنة ٢٠٠م، وترك كثير من المؤلفات الطبية وخاصة في علم التشريح. ابن النديم: الفهرست، تحقيق محمد عوني عبد الرؤوف، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٨٨–٢٩١؛ ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ص٤١–٥٠؛ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ص٩٩–١٠٦؛ باشا، أحمد فؤاد: التراث

لم يقتصر الأطباء في دراستهم لعلم التشريح على مؤلفات أطباء اليونان وخاصة جالينوس، بل كانت النتائج تستخلص بناء على مشاهداتهم الشخصية وتجاربهم الذاتية[١٦٤]، وقد استفادوا من كثرة تلك الجثث من دراسة شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفاده علما لم يكن ليجده بين دفات الكتب، وكان من بين ما توصل إليه أن الفك الأسفل عبارة عن عظمة واحدة بدون مفصل، وليس مؤلف من عظمتين يجمع بينهما مفصل أو تدريز. كما ذكر جالينوس. وقد استفادوا من تلك التجارب ما أفادهم علمًا لا يستفيدوه من الكتب. إما لأنها سكت عنها أو لأن لفظها لا يفي بالدلالة عليها أو يكون ما شاهدوه مخالفا لما قيل فيها والحس أقوي دليلًا من السمع" [١٦٥].

كما أشار البغدادي أن: "من عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر أفهامهم، وفهمهم لقصور القول عن العيان... فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيده من الكتب، ... فمن ذلك عظم الفك الأسفل، فإن الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عن الحنك، وقولنا الكل إنما نعني به ها هنا جالينوس وحده، فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب... والذي شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز أصلًا "[١٦٦].

العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٦٠-١٦١.

(١٦٣) الإفادة والاعتبار، ص١٣٢-١٣٣. كتاب علاج التشريح وهو الذي يعرف بالتشريح الكبير كتبه في خمس عشرة مقالة وذكر أنه قد جمع فيه كل ما يحتاج إليه من أمر التشريح. عيون الأنباء، ج١، ص١٠٩-١٤٩.

(١٦٤) التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص١٧٧.

(١٦٥) الافادة والاعتبار، ص١٤٩؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ج٩، ص٤٧؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،ج٤٢، ص٣٨.

(١٦٦) الإفادة والاعتبار، ص١٥٠. فقد ذكر بول غليونجي " غير أن الأمانة تدعونا إلى تبرئة جالينوس، لأنه اعتمد على تشريح الأجنة الميتة لأسباب دينية، وعظمتا الفك عند الأجنة غير ملتئمتين. عبد اللطيف البغدادي، ص١٥٥.

الخاتمة

خرجت الدراسة بمجموعة من النتائج كان منها:

- أن نهر النيل محور حياة أهل مصر، وسر الحياة وديمومتها في التحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها.
- أن السبب المباشر للغلاء ثم المجاعة التي أصابت مصر هي قلة فيضان النيل عن المنسوب الكافي لري الأرض الزراعية.
- أثرت الاضطرابات السياسية بطريق غير مباشر في تفاقم الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها مصر.
- استخدم العادل الأيوبي هذه المجاعة سياسيًا في التخلص من المعارضة السياسية لحكمه في مصر.
- تعد هذه المجاعة أشد المجاعات التي مرت بها مصر من حيث كثرة عدد الوفيات التي تعدت ثلثي عدد السكان.
- أدى قلة توافر المواد الغذائية إلي تناول لحوم الحيوانات، لحوم الاحياء من البشر، ثم لحوم الموتي.
- كان لتلك المجاعة تأثيرها المدمر للحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في مصر.
- أدت تلك المجاعة إلي الانهيار العمراني للمدن والقري المصرية وخاصة مدينة الفسطاط.
- أثرت تلك الأزمة في نفسية أهل مصر وغلبتها الطبائع الحيوانية.
- يجب الحفاظ على نهر النيل ومياهه والعمل على استمرار تدفقه إلى الأراضي المصرية بأي ثمن كان وإلا تنتهي الحياة في هذا الإقليم.